القراءة الحداثية للقرآن الكريم

"سماتها وعلاقتها بالفكر الغربي"

إعداد

طـه أحمد عبدالحميد

الملخص

هذا البحث بعنوان «القراءة الحداثية للقرآن الكريم سماتها وعلاقها بالفكر الغربي»، وهو يتناول القراءة الحداثية للقرآن الكريم، وما تتسم به هذه القراءة من سمات تتباين مباينة تامة مع الفكر الإسلامي وضوابطه وأصوله، وعلاقتها بأصلها الغربي المنقولة منه، وأثر ذلك في الخلال الذي حدث في الفكر الحداثي العربي، وقد جاء البحث في مطلبين: الأول: سمات القراءة الحداثية للقرآن الكريم، وقد تناول المطلب الركائز الأساسية التي اعتمدت عليها الحداثة، والسمتين الأساسيتين للقراءة الحداثية وهما: سيادة العقل في العملية التأويلية، والغموض والتضارب المنهجي. والثاني: علاقة الفكر الحداثي بأصل الغربي، وقد تناول المطلب علاقة الحداثة بالفكر الغربي والمجالات التي نشطت فيها الحداثة، وأثر نقل هذه التجربة إلى الفكر الإسلامي رغم الفوارق الجوهرية بينه وبين الفكر الغربي، وتناولت فشل الخطاب الحداثي وأسبابه، ثم خاتمة تتضمن أهم نتائج هذا البحث، ومنها أن الحداثيين ينظرون إلى القرآن نظرة واحدة مع غيره من النصوص التراثية الأخرى؛ فلا استثناء للقرآن، ولا قدسية للنص القرآني، وسعى الحداثيون إلى نقل التجربة الغربية إلى التراث الإسلامي دون مراعاة للفوارق والاختلافات العظيمة بين الوحي المنزل الذي قام عليه الإسلام وبين الدين المحرف الذي كان سائد في أوربا إبان الثورة الفرنسية.

الكلمات المفتاحية: الحداثة – الغرب – العقل – المنهج – الفكر

Abstract

This research is entitled “The Modernist Reading of the Holy Qur’an, Its Features and Relationship with Western Thought.” It deals with the modernist reading of the Holy Qur’an, and the features of this reading that are in complete contrast with Islamic thought, its controls and origins, and its relationship to its Western origin transmitted from it, and its impact on the defects that occurred in Arab modernist thought, and the research came in two demands: the first: the characteristics of the modernist reading of the Holy Qur’an, and the second: the relationship of modernist thought to the origin of the West, then a conclusion that includes the most important results of this research, including the ambiguity and systematic inconsistency in the modernist reading of the Holy Qur’an to the extent of “terminological terrorism”.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، القائل في محكم كتابه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)} [الحجر: 9]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، صاحب الرسالة العامة للعالمين، الباقية إلى يوم الدين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فالحداثة اتجاه فكري شامل وواسع، فهي تتضمن كل المذاهب الفكرية، وهي لا تخص المجالات الأدبية، ولكنها تشمل كل نواحي الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على حد سواء، وهي بهذا المفهوم الاصطلاحي "اتجاه جديد يشكل ثورة كاملة على كل ما كان وما هو كائن في المجتمع "[1].

فقد تعددت أبعاد الحداثة ومدلولاتها وشموليتها لمستويات من الوجود الإنساني، العلمية والتقنية والاقتصادية والسياسية والأدبية والفنية والفلسفية والتداخل فيما بينها.

فالحداثة هي نقيض القديم والتقليدي، فهي ليست مذهبا سياسيا أو تربويا أو نظاما ثقافيا واجتماعيا فحسب، بل هي حركة نهوض وتطوير وإبداع هدفها تغيير أنماط التفكير والعمل والسلوك، وهي حركة تنويرية عقلانية مستمرة هدفها تبديل النظرة الجامدة إلى الأشياء والكون والحياة الى نظرة أكثر تفاؤلا وحيوية.

لكن نقل تلك التجربة إلى العالم الإسلامي وتطبيقها بكل حذافيرها، دون مراعاة للاختلافات بين البيئة التي نشأت فيها الحداثة وبين البيئة المنقولة إليها، أضر أكثر مما نفع، وكذلك تجاوز الثوابت والتعدي على الأصول، والخلط بين المقدس وغير المقدس، أخرج الفكر الحداثي من محاولة تقديم قراءة جديدة للقرآن إلى محاولة هدم الشريعة التي جاء بها القرآن.

وقد جاءت هذه الدراسة لعرض سمات القراءة الحداثية للقرآن الكريم وعلاقها بأصلها الغربي المنقولة منه.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى مقدمة ومطلبين وخاتمة على النحو التالي:

المطلب الأول: سمات القراءة الحداثية للقرآن الكريم.

المطلب الثاني: علاقة الفكر الحداثي بأصل الغربي.

الخاتمة، وفيها أهم نتائج الدراسة.

المطلب الأول:

سمات القراءة الحداثية للقرآن الكريم

القراءة الحداثية للنصوص الشرعية تهدف في الأساس إلى نزع القداسة عنها، وفق أحد أهم المبادئ التي تقوم عليها الحداثة وهو «مبدأ التاريخية»، لذي يعني: أن للأحداث والممارسات والخطابات أصلها الواقعي وحيثياتها (الزمانية والمكانية) وشروطها (المادية والدنيوية)، وخضوع البنى والمصطلحات والأفكار للتطور والتغير وإعادة التوظيف، وقد قامت على الركائز الأساسية التي اعتمدت عليها الحداثة وهي:

1- الحركة الدائمة التي همُّها توليد الحركة.

2- تقديس الجديد من حيث هو جديد لا لاعتبارٍ آخر، ذلك أنه في فلسفة الحداثة تسقط كلّ معايير التفضيل، ويبقى الزمن وحده معيارًا لذلك، فيكون الشيء أفضل من غيره لا لأمر ذاتي فيه، بل لمجرد كونه اللاحق زمنيًّا.

3- الاهتمام بالحاضر والرفض التام للماضي.

4- التمركز حول الذّات.

5- تمجيد العقل والسعي نحو العقلنة.

6- التمدّن والتصنيع والتكنولوجيا.

7- الشكّ في صحة الكتب المقدسة وفي كلّ ما هو ديني.

8- الانفتاح الكامل على الكون[2].

وتتسم القراءة الحداثية للنصوص بسمتين رئيسيتين هما:

1- سيادة العقل في العملية التأويلية: تعتمد القراءة الحداثية أساسًا على العقل في التعامل مع الآيات القرآنية، بل والرأي المجرد عن الدليل حتى فيما يتعلّق بالحقائق الغيبية والقضايا القطعية، فنجد الحداثيين – على سبيل المثال – يدلون بدلوهم في مسألة ميراث الذكر والأنثى، بين محرف لمعنى النص الوارد فيها وهي قوله تعالى: { يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ } [النساء: 11]، وبين داعٍ إلى الاكتفاء بقراءته مع تعطيل العمل به، وبين مهاجم للشريعة الإسلامية التي فيها هذا التفريق بين الرجل والمرأة – بزعمهم –.

2- الغموض والتضارب المنهجي:

يجمع بين القراءة الحداثية قاسم مشترك هو الغموض؛ إذ يعتبر الغموض الفكري والمنهجي والمصطلحي ظاهرة بارزة في هذا الخطاب، حيث اتخذ الإغراب والتعقيد تعويضًا عن الضحالة الفكرية والتضارب المنهجي الغالب على هذه الكتابات، وقد يبلغ هذا الغموض درجة «الإرهاب المصطلحي» عند بعض الحداثيين في تعاملهم مع القرآن الكريم، وهذا ما عبَّر عنه محمد أركون نفسه فعاب على غيره الغموض والإبهام قائلًا: «يستخدمون الرطانة الفلسفية ويتلاعبون بها، أقصد الكلام الغامض المبهم الذي يقول كلّ شيء ولا يقول شيئًا يُذكر، أقصد العبارات الملتوية المعقّدة التي توهم أنها تحتوي على ألغاز الكون وأسراره وهي فارغة من المعنى»[3].

والقراءة الحداثية للنصوص لا تفترض منهجًا علميًّا محددًا في التعامل مع النصّ القرآني، بل تتبنَّى عدة مناهج مختلفة أو حتى متناقضة في الآن نفسه، فتجد الواحد منهم مثلًا يتبنَّى الماركسية والبنيوية ونظرية التلقي في الوقت نفسه رغم أن بعضها قام على أنقاض بعض؛ مما يجعل هذا الخطاب بعيدًا مطلقًا عن الانسجام الفكري أو متَّسمًا باللامنهج، وهذا مزية للبحث العلمي بالنسبة لمحمد أركون، ويسمِّيه بالمنهج متعدد الاختصاصات[4].

وقد صرح الحداثيون بأن الحديث عن القرآن الكريم وعن غيره من النصوص التراثية متساوٍ، فلا استثناء للقرآن، ولا قدسية للنص القرآني، وقد بنوا على ذلك أنه لا توجد لألفاظ القرآن الكريم معانٍ ثابتة، ولا دلالات ذاتية من الممكن الكشف عنها من خلال اللغة واحتمالاتها، بل التاريخ والواقع الاجتماعي هما من يكشف عن معنى النص، فالنص في نظرهم عبارة عن فضاء دلالي، وإمكان تأويلي، ومأزق القراءة في العقل العربي والإسلامي مرجعه إلى النظرة الأحادية لمعنى ألفاظ القرآن الكريم، فلا حقيقة ثابتة للنص، وبالتالي دراسة القرآن الكريم لابد أن تكون إنسانية تاريخية لا إلهية مقدسة، وما دام النص القرآني إنساني فلا يجوز لإنسان احتكار المعنى الحق أو الصواب، فلكلٍ صوابه وحقه، وهذا ما يعني ضياع المعنى بين المؤولين أياً كانوا!يقول محمد أركون: «التقديس للكتب المقدسة خلع عليها وأسدل بواسطة عدد من الشعائر والطقوس والتلاعبات الفكرية الاستدلالية، ومناهج التفسير المتعلقة بكثير من الظروف المحسوسة المعروفة أو تمكن معرفتها، وأقصد الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية»[5].

وهو لا يستثني القرآن من هذا الكلام، بل يعممه على جميع الكتب المقدسة، إلا أنه يستثنيه في قضية فرعية، وهي أن أسباب تقديس القرآن غطت عليها الظروف السياسية والثقافية والتربوية، بحيث لم تكتشف بعد، ولم يحرف، أو يتلاعب بألفاظه، أو معانيه، على عكس الكتب المقدسة الأخرى، فالنص القرآني قدسيته تاريخية لا إلهية![6].

المطلب الثاني: علاقة الفكر الحداثي بأصل الغربي

تجلت الحداثة في عدة مجالات ففي المجال السياسي تمثلت في الديمقراطية وتعبير عن حرية الفرد والمجتمع في اتخاذ قراراته كونها تعتبره واعيًا ومسؤولًا عن أفكاره وأفعاله، بالإضافة إلى ظهور منظمات وأحزاب ونقابات...

فالحداثة تمثل المذاهب الفكرية الغربية التي نشأت بعد الثورة الفرنسية، فكانت الرأسمالسة وجهة من وجهات المتحررين من ذلك، فالحداثة تتضمن الإحالة على تاريخ انتقال المجتمعات الغربية من العصور الوسطى إلى المجتمع الرأسمالي عبر مجموعة من الصراعات والإنتاجات الفكرية، ومن تم فإن الحداثة تدل على الجوانب النظرية والممارسات الفنية، وبناء الصناعة وتخطيط المدن وتوسيعها وإغراق الأسواق بالبضائع، فالرأسمالية تمثل حالة من الخروج عن العجز والتسلط الذي كانت تعانيه أوربا فيما قبل الحداثة، فالأفكار كانت تميل إلى البحث عن العدالة الاجتماعية ورفض الإقطاع والطبقية التي كانت سائدة في أوروبا في ذلك الوقت وتدعو إلى مجتمع فاضل يحصل فيه الجميع على حقوق متساوية. أدت هذه المدارس الفكرية إلى ظهور العديد من المدارس السياسية والاقتصادية القائمة عليها مثل الليبرالية والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية والماركسية وغيرها، وأدت تلك بدورها إلى تغيير النظم الحاكمة في أوروبا وحدوث الثورات الاجتماعية والسياسية مثل الثورة الفرنسية والثورة البلشفية.

إلا أن الحداثة غلب عليها الجانب الفكري، حيث هي في الأصل مذهب عقلاني، فالحداثة الغربية تمثل منظومة إمبريالية داروينية تحكمها العقلانية المادية في إطار منظومة ثُنائية الإنسان والطبيعة، حيث يكون الإنسان المتأله، أي الذى يجعل نفسه مركز الكون والطبيعة، فأهم مقولات الحداثة الغربية يتمثل في: العقلانية، فالعقلانية هي المظهر الأساسي الأول للحقيقة، وهذا ما جعل فكرة الحداثة مُقترنة بها اقترانا وثيقًا[7].

والعقل هو المجال الذي يتحرك فيه الخطاب الحداثي بكل مستتبعاته وإشكالاته، ولهذا فإن العقلانية تمثل مفتاح الحداثة وروح الإنسان المعاصر، حتى قيل: الحداثة العقلانية، أو عقلانية الحداثة[8].

وقد سعى هؤلاء الحداثيون إلى نقل التجربة الغربية إلى التراث الإسلامي دون مراعاة للفوارق والاختلافات العظيمة بين الوحي المنزل الذي قام عليه الإسلام وبين الدين المحرف الذي كان سائد في أوربا إبان الثورة الفرنسية، "ما أسهل تطويق الإسلام بهذه الطريقة! وجَعْلَه اسمًا لا حقيقة له، أو جَعْلَه شكلاً لا موضوع له! وقد بدأ سماسرة الاستعمار تنفيذ الخطة، فسمعنا من يقول: إن الضرائب تغني عن الزكاة! ومن يقول: إن الصلاة والصيام يعطلان الإنتاج، فلا حرج من التنازل عنهما! ومن يقول: إنما حرم لحم الخنزير لقذارة مَراَعيه قديمًا وقد زالت الآن هذه العلة!... وهكذا تَنهَدُّ أركان الدين وتَضيع معالم الحلال والحرام باسم (روح النص) و(تغير الظروف)، ويُمنَع انتفاع الناس بالإسلام بل يُمنَع دخولها فيه! وينفسح المجال بعد ذلك للإلحاد أو للأديان الخرافية!»[9].

كما أن المشروع الحداثي قد فشل تماماً في كل المجالات التي طُرح فيها، رغم الوسائل الضخمة التي وضعت تحت تصرفه، والجهاز الكبير – من المثقفين – الذي تهيأ لحمله، والأموال الطائلة التي رصدت له، ويعود سبب فشل هذا المشروع في العالمين العربي والإسلامي إلى عاملين:

الأول: ارتباطه بالمشروع الاستعماري.

الثاني: تناقضه مع المشروع الإسلامي للتجديد والإحياء.

والشعوب الإسلامية عامة تتعاطف وتتجاوب مع المشروع الإسلامي، وتنفر من المشروع الاستعماري وتعارضه ولا تتجاوب معه، لقد انصبت جهود مثقفي الحداثة الغربية على الهجوم على الدين، وتفكيك العادات والأواصر الاجتماعية، وكسر الرموز التراثية –السلبية منها والإيجابية على السواء –وقد ذهبت كل هذه الجهود أدراج الرياح، وإن خلفت بعض الغبار المتراكم في كثير من الزوايا والمناحي، وأفسدت كثيراً من العقول والقلوب والنفوس.

فقد فشلت الدعوة إلى الكتابة بالخط اللاتيني، وتبخرت جهود الداعين إلى كتابة الأحرف العربية كما تلفظ، خرقاً لقواعد اللغة العربية في النحو والإملاء والخط، وانتكست كل محاولات إعادة صياغة قواعد النحو والصرف، وإلباس الألفاظ معاني جديدة غير معهودة في اللغة، وارتكست كل محاولات الهجوم على القرآن الكريم واعتباره بشرياً من صياغة الرسول، وانهزمت كل محاولات قراءته قراءات عصرية مبنية على مفاهيم الحداثة الغربية. إن كل هذه المحاولات لم تلق صدًى يذكر في عقول وقلوب الجماهير المسلمة، وإن

كانت قد خلفت بعض الغيوم القاتمة في أجواء بعض المثقفين الماضين على خطى الحداثة الغربية.

أما المجالات البسيطة التي تبدى للمثقفين الحداثيين أن الحداثة الغربية قد نجحت بها، فإن الفضل في ذلك لا يعود للحداثة ولا للحداثيين، وإنما هي من طبائع الأمور في المجالات المرنة التي تقبل التطور والتقولب وفق المقتضيات الحياتية المتسارعة التي لا تتوقف، ووفق المعارف والعلوم والتقنيات التي تتلاحق وتتكشف يوماً بعد يوم.

والإسلام دين العلم والمعرفة، ودين التقنية والحضارة والمدنية، لا يعاديها ولا يجافيها ولا يقف في طريقها، بل يحث عليها ويعاضدها ويساندها إلى آخر مدى.

الملاحظة الثالثة: أن الحداثة الغربية – التي يعتضدها حداثيونا – قد استنفذت أغراضها وفقدت كل مبررات وجودها، حتى أن الغرب نفسه قد ملّها وسئمها، وبدأ يتحرك للثورة عليها بعد أن اكتشف عوارها ومقتلها، وأحس بالنفق المظلم الذي أدخلته فيه، فراح يتلمس طريقه إلى ما سمي بـ (ما بعد الحداثة).

الخاتمة

1- تتسم القراءة الحداثية للنصوص بسمتين رئيسيتين هما:

أ- سيادة العقل في العملية التأويلية: تعتمد القراءة الحداثية أساسًا على العقل في التعامل مع الآيات القرآنية، بل والرأي المجرد عن الدليل حتى فيما يتعلّق بالحقائق الغيبية والقضايا القطعية

ب- الغموض والتضارب المنهجي: وهو قاسم مشترك بين جميع الحداثيين؛ حيث اتخذوا الإغراب والتعقيد تعويضًا عن الضحالة الفكرية والتضارب المنهجي الغالب على هذه الكتابات، وقد يبلغ هذا الغموض درجة «الإرهاب المصطلحي».

2- ينظر الحداثيون للقرآن نظرة واحدة مع غيره من النصوص التراثية الأخرى؛ فلا استثناء للقرآن، ولا قدسية للنص القرآني.

3- سعى الحداثيون إلى نقل التجربة الغربية إلى التراث الإسلامي دون مراعاة للفوارق والاختلافات العظيمة بين الوحي المنزل الذي قام عليه الإسلام وبين الدين المحرف الذي كان سائد في أوربا إبان الثورة الفرنسية.

الحواشي

(1) الحداثة في الأدب المعاصر . هل انفض سامرها ، د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر 1410 هـ.

(2) ينظر: القراءة الحداثية للنصّ القرآني : دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، د. فاطمة الناصري، مقال على موقع إسلام أون لاين، على رابط:

https://2u.pw/jj9Yn8

(3) الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1996 (ص203).

(4) ينظر: القراءة الحداثية للنصّ القرآني : دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، د. فاطمة الناصري.

(5) القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الثانية، 2005م (ص66).

(6) ينظر: القرآن الكريم في الفكر الحداثي، عبد اللطيف المحيمد، مقال في موسوعة السبيل، على رابط:

https://2u.pw/HYeiY7

(7) ينظر: الحداثة وما بعد الحداثة، الدكتور عبد الوهاب المسيري، الدكتور فتحي التريكي (ص16–21).

(8) ينظر: عقلانية الحداثة المؤيدة، محمد أحمد الصغير، مقال في مجلة عقلانيون بلا حدود للدراسات والأبحاث بتاريخ 20 أغسطس 2018م، على رابط:

https://2u.pw/52SXj

(9) مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، كتب الأسئلة خالد محمد خالد، المقطم للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، 1425 هـ - 2004م (259/1).

المراجع

1. الحداثة في الأدب المعاصر . هل انفض سامرها ، د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة الحرس الوطني ربيع الآخر 1410 هـ.
2. الحداثة وما بعد الحداثة، الدكتور عبد الوهاب المسيري، الدكتور فتحي التريكي.
3. عقلانية الحداثة المؤيدة، محمد أحمد الصغير، مقال في مجلة عقلانيون بلا حدود للدراسات والأبحاث بتاريخ 20 أغسطس 2018م، على رابط:

https://2u.pw/52SXj

4. الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، 1996.
5. القراءة الحداثية للنصّ القرآني : دراسة نظرية حول المفهوم والنشأة والسمات والأهداف، د. فاطمة الناصري، مقال على موقع إسلام أون لاين، على رابط:

https://2u.pw/jj9Yn8

6. القرآن الكريم في الفكر الحداثي، عبد اللطيف المحيمد، مقال في موسوعة السبيل، على رابط:

https://2u.pw/HYeiY7

7. القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، محمد أركون، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الثانية، 2005م.

8. مائة سؤال عن الإسلام، محمد الغزالي، كتب الأسئلة خالد محمد خالد، المقطم للنشر والتوزيع، الطبعة الخامسة، 1425 هـ – 2004م.